الفصل التاسع

الطباعة بأحرف متحركة في أوربا واختراعها ومخترعيها جوهان غوتنبرغ

لايوجد في تاريخ الانسانية كلها اختراع يفوق في آثاره اختراع الطباعة بالاحرف المتحركة ، سواء اكانت تلك الآثار ايجابية ام سلبية ، جيدة ام سيئة . ولادل على ذلك مما نشاهده في ايامنا هذه من الرقابة الصارمة بل الحصر المركز الذي تفرضه اغلب الحكومات ، وبشكل خاص الدول الشيوعية والاشتراكية والدول التي تدور في فلكها ، على المطبوعات في بلادها بقصد منع شعوبها وافرادها من الاطلاع الا على ماتريده حكومات تلك الدول من آراء ومبادىء ، وبقصد توجيه اراء ونشاطات شعوبها العقلية في الاتجاه الذي تريده تلك الحكومات . ولذا توجد اهمية خاصة لمعرفة مخترع هذا الاختراع العظيم واين ومتى تم ذلك الاختراع . وتبقى مشكلة معرفة المخترع من المشاكل التاريخية ذات الاهمية البالغة .

لقد رأينا سابقاً كيف ان الطباعة ، وحتى الطباعة باحرف متحركة ، تم اختراعها في بلاد الصين وكوريا في زمن مبكر عن ظهور الطباعة في اوربا ، ولكنا رأينا ولاحظنا الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة هناك لم تساعد في تأصل هذا الاختراع وانتشاره في تلك البلاد . لذا يمكن اعتبار ظهور الطباعة في الشرق الاقصى شيئاً انعزالياً لم يكن له تأثير على مجرى الحضارة العالمية ، على حين ان اختراع الطباعة الذي تم في اوربا حوالي منتصف القرن الخامس عشر هو الذي فتح عهداً جديداً في تاريخ العالم الفكري والحضاري .

ومع ذلك لم يكن لظهور الكلمة المطبوعة ، اول ما ظهرت في اوربا ، تلك الاهمية التي نفترضها ومرت تلك الحادثة العظيمة بصمت وعدم اكتراث بحيث لم تترك صدىً تاريخياً واضحاً وذلك فيما يتعلق بابتدائها . ولم تأت نهاية القرن

الخامس عشر الا وانتشر فن الطباعة ـ ويسمى ايضاً الفن الاسود نسبة للمداد الاسود الذي يستعمل في طبع الاحرف ـ في كل اوربا الغربية . ولكن مخترع الطباعة الاول الذي كان يمتلك في يديه جميع وسائل الدعاية والاعلان عن نفسه وعن فنه ، ظل غارقاً في غموض لاندري ماسببه وكيف نسميه . وهكذا فنحن نجهل تقريباً أين ومتى بدأت الطباعة لاول مرة في اوربا . وعندما يرتفع السؤال : (من الذي اخترع الطباعة ؟) فان الجواب هو اننا لانعرف بالضبط من هو اول شخص صنع الاحرف المتحركة في اوربا وطبع بها .

ولقد جرت ابحاث ضخمة تاريخية قام بها عدد كبير من البحاثة وبذلت جهود مضنية من اجل معرفة الشخص الذي تمت على يديه في اوربا الطباعة باحرف متحركة لاول مرة . وبعد ابحاث كثيرة وجهود مضنية ودراسات مستفيضة ثبت ان جوهان غوتنبرغ هو الشخص الذي يستحق ان ينسب اليه شرف اختراع الطباعة باحرف متحركة في اوربا اكثر من اي شخص آخر . هذا مع العلم انه لاتوجد قطعة واحدة من المطبوعات التي تنسب اليه تحمل اسمه ، كما وانا لانجد ذكراً لغوتنبرغ في الفهرس الكبير الذي اعده المتحف البريطاني لاسماء اوائل الطابعين واعمالهم . ومع ذلك ، فان من المرجح والاعم الاغلب ، مالم تكتشف وثائق جديدة ، ان مخترع الطباعة الاول بأحرف متحركة في اوربا هو غوتنبرغ .

لايوجد لدينا وثيقة واحدة تثبت متى ولد غوتنبرغ ومتى توفي . والاخبار المتعلقة بحياته ونشأته ونشاطاته نادرة ومتضاربة . ولااحد يعرف اين دفن . ولقد اقيم في منيز متحف يحمل اسمه ويضم معروضات من طباعته مع حوالي خمسين صورة له . وقد ادعى بعض البحاثة ان قسماً ضئيلاً جداً مما حواه المتحف يعود لغوتنبرغ حقيقة .

ليس ما نورده فيما يلي عن حياة غوتنبرغ الا نبذة صغيرة تحوي بعض الحقائق الاكثر ثباتاً في الموضوع . فهو ينتمي الى اسرة كريمة من الطبقة الوسطى تدعى اسرة جنسفلايشGensfleish من مدينة منيز ، وقد ولد غوتنبرغ نفسه في منيز في حدود سنة ١٤٠٠ م . وهناك من يذكر انه ولد سنة ١٣٩٧ م . ولقد كانت امه

من اسرة نبيلة وكان اسمها ثزوم غوتنبرغZum Gutenberg . ولقد اتخذ جوهان اسم اسرة والدته نسبة له وذلك حسب عادات العصر التي كانت سائدة آنذاك . ولقد حدثت ثورة في منيز اثناء طفولة جوهان اضطرت اسرته على اثرها الى ترك البلدة . ويبدو ان جوهان استقر في ستراسبورغ في حدود سنة ١٤٣٠ او ١٤٣٤ م . وهناك عاش عيشة هادئة من دخل له ، الى جانب ماكان يحصله من عمله في صناعة المرايا . كذلك يبدو انه اشتغل مع آخرين في ستراسبورغ في نشاط يشبه الطباعة ، وان كنا لانعلم شيئاً عن الموضوع ، وانما اخذت هذه المعلومات من ملف دعوى قضائية رفعت ضده من اجل رأس مال مدفوع ادعى به عليه احد شركائه في العمل . وحكم عليه في حدود سنة ١٤٤٠ م بسبب عجزه عن تعليم اثنين من شركائه القدامى في قضية سرية ، وهي غير مسماة ، ولكن يعتقد انها الطباعة المتحركة . ويقول احد المصادر انه اسس مطبعة سنة ١٤٣٨ م وبدأ في الطباعة .

وهناك عدد من البقايا يعتقد بعض العلماء انه طبعها في ستراسبورغ ،ولكن لايوجد اجماع على ذلك . ورجع غوتنبرغ الى منيز سنة ١٤٤٨ م ،وفي رواية اخرى سنة ١٤٤٠ م . وهناك حاول اقتراض مبلغ من المال لمتابعة مشاريعه التي يعتقد انها مشاريع طباعية كما يشهد بذلك عدد من معاصريه . واخيراً نجد ذكراً لجوهان سنة ١٤٥٥ م كخصم مدعى عليه في دعوى اقامها عليه صائغ ومراب من منيز . موجز القضية ان جوهان استدان من جوهان فوست في سنة ١٤٥٠ م مبلغ ٨٠٠ ليرة ذهبية من اجل (انهاء العمل) . ولقد قدم له جوهان فوست مرة اخرى سنة ١٤٥٢ م مبلغاً آخر مساوياً للاول مقداره ٨٠٠ ليرة ذهبية ، ووقع غوتنبرغ مع فوست عقداً يصبح بموجبه فوست شريكاً لغوتنبرغ في العمل . ولقد طالب فوست باسترداد رأس ماله مع الفائدة ، والمبلغ كله حوالي ٢٠٠٠ ليرة ذهبية . كذلك طالب فوست بوضع يده على الادوات والتجهيزات التي اوجدها جوهان من اجل المشروع .

لايوجد ادنى شك في ان النشاط المقصود في هذه الدعوى والمشروع المقصود هو فن الطباعة . ولانعلم بالضبط نتيجة الدعوى ، ولكن الحوادث التي حدثت فيما بعد تظهر ان غوتنبرغ خسر الدعوى وان فوست ربحها واستولى على القسم الاكبر من ادوات وتجهيزات جوهان غوتنبرغ ان لم يكن عليها كلها . وعندما انتهت أدوار التجارب الأولى في الطباعة برز فوست وصهره شوفور Sehoeffer ـ وهما في شركة واحدة ـ ابرز الطباعين في منيز .

ويبدو ان غوتنبرغ انشأ مطبعة اخرى ، ولكنها كانت صغيرة ولم تكن رابحة . وفي عام ١٤٦٥ م استقبل بحفاوة بالغة في بلاط اسقف مدينة منيز ادولف الذي عينه في بلاطه موظفاً مدى الحياة ، وذلك بسبب (الخدمات الجلى والتطوعية التي قدمها له ولفرقته الدينية والتي يمكن ان يقدمها في المستقبل) .

واخيراً توفي غوتنبرغ اما في اواخر سنة ١٤٦٧ م او اوائل سنة ١٤٦٨ م . ونحن لانعلم اين مات واين دفن ومآل اليه حاله بعد استقراره في منيز .

هناك مصدران مهمان يمكن استعمالهما لاثبات ان غوتنبرغ هو مخترع الطباعة الاساسي الحقيقي ؛ الاول منهما هو ماتبقى من اوائل الكتب التي قام بطبعها غوتنبرغ ، والثاني شهادة المؤوخين والمؤلفين المعاصرين من أنه هو مخترع الطباعةبالأحرف المتحركة .

ومن اجل المصدر الاول يجب ان نلاحظ مايلي : لم يبق كتب كاملة من الكتب التي طبعت في المانيا ابان ذلك العهد . كل ماعثر عليه العلماء هو قصاصات من الرق والورق هي بقايا كتب طبعت في المانيا اوائل اختراع الطباعة . لقد فحصت هذه القصاصات بدقة بالغة ودرست دراسة عميقة مستفيضة وكتبت عنها مقالات كثيرة . وعلى الرغم من وجود خلاف في التفاصيل بين العلماء ، الا انهم جميعاً يوافقون على انها كلها طبعت بأحرف متشابهة كل التشابه ،ولقد استعمل هذه الاحرف الطباعية فيما بعد ، طابعون كانوا موجودين في منيز او جوارها . هذا وان الخلافات الثانوية التي وجدت بينها تعزز الرأي القائل ان تصميم الاحرف قد نبع من فكرة واحدة خلاقة هي التي اوحت بهذا التصميم ، وان التفاصيل اتت من الذين نفذوا هذه التصاميم . هذا وان اسلوب

طباعة هذه القصاصات جميعاً يعود كلياً الى ماسمي باسم اسلوب التوراة ذات الست وثلاثين سطراً ، وهو اسلوب وجد في منيز في حدود سنة ١٤٦٠ م . وتشير كل الدلائل الى ان جوهان غوتنبرغ هو الشخص الذي قام بطبع هذه الكتب او القسم الاعظم منها اذ كان موجوداً آنذاك في منيز وكان يقوم باعمال طباعية ورد ذكرها في الدعاوى التي رفعت ضده . وقد ثبت الان انه قد قام بطبع ثلاثة كتب الاول كتاب الغفران والثاني كتاب دوناتس (في النحو اللاتيني) والثالث كتاب الكاهنات العرافاتSibylles . وقد تم طبعها في ازمان متقاربة وذلك قبل ان يطبع التوراة الكبيرة باللاتينية سنة ١٤٥٥ م . هذا وان كتاب دوناتس توجد منه نسخة محفوظة في المكتبة الاهلية في باريس . واول عمل يحمل تاريخ الطبع هو الغفران البابوي الذي تاريخه ١٤٥٤ م . ويعتقد الدارسون ان التوراة ذات ٤٢ سطراً ، وسميت كذلك لان كل صفحة تحوي ٤٠ ـ ٤٢ سطراً مطبوعاً ، قد انجزت سنة ١٤٥٦ م . وقد تم طبعها في مطبعة غوتنبرغ التي اخذها فوست وشوفر ، ويعتقد الدارسون ان غوتنبرغ بدأ طباعتها واكملها فوست وشوفر . وهي تعرف رسمياً باسم توراة غوتنبرغ . ويوجد الآن منها في العالم ٣٢ نسخة . وتعتبر النسخة المحفوظة في المكتبة الاهلية في باريس ونسخة جامعة ييل اكمل النسخ . ويدل اسلوب الطباعة على انه اسلوب متطور وهي من اجمل ما تم طبعه مدى العصور . لذلك لايعتقد ان مثل هذا الكتاب وهذه الطباعة الفاخرة الانيقة هي اول انتاج المطبعة ، ولابد ان سبق هذا الكتاب سنوات طويلة من التجارب والمحاولات والاخطاء حتى وصل فن الطباعة الى ما وصل اليه من نضج وجمال واضح في طبع هذه التوراة . ويبدو ان هذه السنوات الطويلة من التجارب والاختبارات لم تقدم ربحاً مادياً بل ادت الى افقار غوتنبرغ وجنى خلفاؤه ومن حل محله في المطبعة فوائد عمله .

توراة ذات ٣٦ سطراً : وتعتبر هذه توراة غوتنبرغ الحقيقية . يوجد منها ٨ نسخ في الوجود . ليست طباعة هذه التوراة متقنة كاتقان طباعة التوراة ذات ٤٢ سطراً . فالاحرف كبيرة وترك فراغ ليملأ بالحروف الاولى والرموز على طريقة ترتيب المخطوطات ، وغالباً طبعت سنة ١٤٥٠ م باحرف اقل اتقاناً من الاحرف التي

حصل عليها فوست من غوتنبرغ .

وهناك مزمور صدر في منيز سنة ١٤٥٧ م وهو اول مطبوع يحمل اسم فوست وشوفر ويعتقد انه طبع في مطبعة غوتنبرغ التي اخذها فوست وشريكه . وهناك من ينسب الى غوتنبرغ انه طبع كتاباً اسمهCatholicon صدر سنة ١٤٦٠ م في منيز ، ولكن لادليل على ذلك ، وسنوات غوتنبرغ الاخيرة في منيز غامضة والروايات حولها متضاربة .

ونجد في شهادات عدد من المؤرخين المعاصرين ورجالات القرن الخامس عشر اشارات واضحة الى الطباعة والى ان مخترع الطباعة هو يوحنا غوتنبرغ ، ولنذكر قليلاً من كثير . فقد وجد في مخطوط فرنسي ما موجزه ان ملك فرنسا آنذاك (سنة ١٤٥٨ م) وهو شارل السابع سمع ان جوهان غوتنبرغ من منيز قد اخترع طريقة جديدة لطبع الكتب ، ولذلك طلب من مدير المصانع الملكية ان يرسل شخصاً ذكياً موثوقاً به الى منيز ليتعلم الاختراع الجديد .

كذلك وجد في نهاية الجزء الاخير من **مؤسسات جوستنيان** الذي طبع سنة ١٤٦٨ م في منيز في مطابع بيتر شوفر شعر لاتيني مؤلف من اربعة وعشرين بيتاً لايعرف قائله يذكر فيه الشاعر فن الطباعة الجديد ويذكر ان (شخصين اسم كل واحد منهما جوهان وكلاهما ولد في منيز هما اللذان بدءا فن الطباعة الجديد) ويضيف الشاعر اليهما اسم شخص ثالث هو بيتر . لذا فان الاستنتاج يفرض نفسه فرضاً في ان المقصود بجوهان الاول جوهان غوتنبرغ ، وجوهان الثاني هو جوهان فوست ، واما بيتر فهو بيتر شوفر .

وقد اكتشف في كتاب طبع في باريس سنة ١٤٧٠/١٤٧١ م رسالة ملحقة به وجهها أحد أساتذة جامعة السوربون في باريس واسمه غيوم فيشه Guillaume Fichet الى احد تلاميذه القدامى يتكلم فيها عن (الضوء الكبير) الذي مُنِحَ حديثاً للعالم الفكري وهو عبارة عن (نوعية جديدة في الكتابة نشرتها المانيا في كل الانحاء في ايامنا هذه) ويتابع قوله(هناك شخص اسمهIoannes Bonemontanus) كان (اول من اوجد فن الطباعة) . انه ليس صعباً ان نتعرف على اسم غوتنبرغ من الصيغة اللاتينية للاسم التي وردت باسم

بونمومتانوس . يتابع فيشه قوله عن فن الطباعة بان (انتاج الكتب بواسطته لم يعد يتم بالقلم ، وانما بواسطة حروف معدنية ، وهذا شكل سريع وجذاب وجميل) ويقول فيشه(ان هذا الرجل يستحق ان يشرف بمكافأة خليقة باحد الآلهة) . (وهو الذي اعطى الاحرف شكلاً يجعل من الممكن ، اعتباراً من وقتنا الحاضر فما بعد ، كتابة اي شيء يمكن ان يقال او يفكر به بهذه الطريقة ، ونقل وتحويل الاشياء المخطوطة سابقاً التي كتبت باليد لتكتب بهذه الطريقة ، وبهذا يمكن ان تحفظ وتنقل الى الاجيال اللاحقة سليمة لاعيب فيها) .

وقد ورد في رسالة الاستاذ الفرنسي الباحث قوله ان غوتنبرغ اوجد كتابه في مكان (لايبعد كثيراً عن مدينة منيزHaut Procul a Civitate Maguncia) . وربما كان يعني المدينة نفسها . وان المهم في هذا النص هو ان باحثاً فرنسياً سجل منذ سنة ١٤٧٠ م ان غوتنبرغ هو مخترع فن الطباعة .

وقد ورد في كتاب طبع في بال من سويسرا سنة ١٤٧٢ م ذكر لمهد الطباعة وان ذلك المهد هو مدينة منيز (واذا كانت الطباعة قد اخترعت في منيز فانها لازالت بعيدة عن ايدي الرعاع في بال) ويهمنا من هذا النص ذكره ان منيز كانت مهد اختراع الطباعة .

وهناك اشارة في كتاب الفه تريتيميوسTrithemius المسمى باسمAnnals Hirsaugienses الى فن الطباعة ومخترعه(ان فن الطباعة المدهش قد اخترعه جوهان غوتنبرغ مواطن من منيز) . ويضيف المؤلف ، باضطراب خيالي غير متوقع ومثير الى نفس الجملة جملة اخرى فيها اسم جوهان فوست ويصفه بانه(المخترع الاول) مع غوتنبرغ .

ولقد زعمت بعض البلدان لنفسها شرف اختراع الطباعة ، وبشكل خاص تدعي البلدان الواطئة ان لوران كوسترCoster من هارلم هو الذي اخترع الطباعة باحرف متحركة في الثلاثينات من القرن الخامس عشر . ولكن البرهان على هذا الادعاء هزيل كل الهزال . فقد ذكر تاريخ كولونيا في سنة ١٤٩٩ م انه وجدت في هولندا كتب قواعد النحو اللاتينية مطبوعة ولكن يحتمل انها كانت كتباً لوحية . وعلى اية حال فان كتب كوستر لاتحمل تاريخاً ولاندري ان كانت سابقة على عهد

غوتنبرغ ، والطريقة التي استعملها في صهر الحروف يحتمل انها كانت غير عملية وشاقة . ولهذا- وحتى لوصدقنا الادعاءات القائلة ان غوتنبرغ قد شاهد طبعات كوستر في عيد الذخائر الدينيةفي مدينة آخن سنة ١٤٤٠ م وحرضه ذلك على الاهتمام بطباعة الكتب . وعلى الرغم من كل ذلك فانه تجدر الاشارة الى ان هذا الهولندي لم يعلم غوتنبرغ شيئاً ذا غناء ، بحيث يمكن الجزم ان فكرة الحروف المتحركة قد واتته عن طريق الحروف الزخرفية المستعملة في الطبع على التجليد ، اذ انها كانت هي نفسها نوعاً من الحروف المنفصلة التي يمكن جمعها ثم فكها عقب استعمالها . اضف الى ذلك تجليدات تحمل زخارف طبعت بحروف معدنية منفصلة عن بعضها بعضاً منذ العقود الاولى للقرن الخامس عشر .

كذلك ادعى بعض الاشخاص في عدد من مدن فرنسا وايطاليا والمانيا وتشكوسلوفاكيا انهم هم الذين اخترعوا الطباعة باحرف متحركة ، ولكن البراهين على ادعاءاتهم متهافتة .

وهكذا يعتبر اغلب الباحثين ان مخترع الطباعة الحقيقي والاول هو يوحنا غوتنبرغ . ومالم تحدث اكتشافات مهمة واساسية في حقل الطباعة فان غوتنبرغ سيظل مركزه ثابتاً في هذا المجال ، لانه هو الذي توصل الى تخيل آلة عملية سهلة لصهر الحروف والى جعل الطباعة سهلة حقاً . اما القول انه كان له مساعدون ، فهذا لاينقص من قدره لان مساعدي الرجل ينفذون افكاره ويتعلمون منه ، وهذا ما حدث لمساعدي غوتنبرغ ، هذا مع العلم اننا لانعلم بالضبط الدور الذي لعبه هؤلاء المساعدون في حال وجودهم . وهذا كله يجعلنا نعترف به مخترع الطباعة الاول .

لايمكن المبالغة في اهمية الطباعة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية . فقد اصبح ، لاول مرة في التاريخ ، ولو نظرياً على الاقل ، انتاج اعداد لاتنتهي من اي كتاب ذلك ان باسكان المطبعة ، اذا قدمت لها الورق اللازم ، ان تصدر من نفس الكتاب او المطبوع ، الملايين وملايين الملايين والتي لانهاية لها من نفس العمل .

كذلك ساعدت الطباعة في رخص اثمان الكتب بما لايقدر وذلك لقلة كلفة

النسخة الواحدة من المطبوع بالموازنة مع المخطوط . وادى ذلك بالتالي الى نشر الكلمة المطبوعة بين اعداد متزايدة من بني البشر . وقد سهل ذلك عملية التعليم وانتشار الثقافة والتربية والتعليم بين افقر واحط طبقات المجتمع .

وساعد انتاج الكتب المطبوعة باعداد متزايدة على تحطيم الحصر الذي كان يفرضه الناسخون اليدويون الممتهنون والى فتح ابواب المعرفة لجميع افراد بني البشر .

كذلك لاحظ الحكام والملوك والرؤساء خطر انتشار الكلمة المطبوعة بين الجماهير فحاولوا ضبط هذه العملية بواسطة الرقابة على المطبوعات التي كانت ولاتزال سلاحاً خطراً ذا حدين في يد حكام الدول وزعمائها .

ولقد قامت تجارة نشطة للكتب المطبوعة وازداد تبادل المطبوعات بين الدول بازدياد عدد الكتب . وهذا لايعني انه لم يكن هناك تجارة للمخطوطات ، فقد كان هناك تجارة للمخطوطات بين الدول ، ولكن قدوم الكتاب المطبوع جعل هذه التجارة انشط بكثير مما كانت عليه في السابق .